راحت السكرة وجاءت الفكرة

وهكذا تأكد محمد بك لاظ من حسن تدبير سيده محمد علي باشا، ولكنه فجأة شعر بالقلق على سيده؛ فهو من وجهة نظره لن يستطيع القيام بالدور المزدوج كمشارك في الأحداث ومتفرج عليها في الوقت نفسه، فقد أصبح الباشا واليًا على مصر، وورث عرشها رسميًّا، وورث معه عديدًا من المشكلات المرتبطة بالحكم، وبدأ لاظ يفكر في هذه المشكلات واحدة تلو الأخرى، ويزداد توتره كلما أمعن في التفكير؛ فهناك المماليك المسيطرون على الوجه القبلي، بل واقترب بعضهم من القاهرة كالألفي المدفوع من الإنحليز، وكذلك هناك الجنود الذين لن يتوقفوا عن المطالبة برواتبهم المتأخرة، وهناك زعماء الشعب الذين لن يكفوا عن المطالبة بتحقيق الوعود الكثيرة التي وعدهم بها الباشا، ولا ينسى لاظ أن فرمان التكليف الذي صاحبته أوامر بإرسال قوات للحجاز لإعادة سيطرة الدولة العثمانية عليها وإنهاء الاضطرابات، كما أن فرنسا وقنصلها يترقبون الموقف، ولا يعلم أحد نواياهم ونوايا الإنجليز، يا لها من مشكلات كثيرة ومعقدة، فهل سيستطيع سيده التصرف في كل هذا؟

وتوجه لاظ إلى الباشا ليهنئه بالمنصب الجديد، ولكن التهنئة لم تكن هي سبب اللقاء، بل إنه أراد أن يطمئن على الباشا بعد تحمله كل هذه الأعباء، وليحاول أن يقف على ما سيقوم به الباشا حيال كل ذلك، ففوجئ لاظ بالباشا فكان هادئًا مبتسما بشوشا، ولا تبدو عليه أية علامة من علامات القلق، وقال لاظ في نفسه: هذا الرجل سيصيبني بالجنون يومًا ما! إن لاظ المسكين يحاول أن يفهم ويتابع تصرفات الباشا دون جدوى، إنه يراه دائمًا يتحرك ويسير في اتجاه أهدافه في ثقة المشاهد، ولا يساوره أي شك في تحقيقها، وهي أهداف تبدو للاظ شبه مستحيلة، أما هذا العبقري فيراها محققة بالفعل، ويتجه إليها في ثبات وثقة.

ومن أعجب ما قاله الباشا له ذات مرة إنه يرى في مصر أساسًا لبناء صرح شامخ وبناء ضخم، وعندما استفسر منه عن طبيعة هذا الصرح قال: إنها الدولة العظمى التي يخطط لتأسيسها على أنقاض الدولة العثمانية والتي سترث حدودها المترامية في الشرق والغرب وفي البحار، والتي ستهابها أقوى دول العالم وتعمل لها ألف حساب، دولة تمتلك جيوشًا نظامية منضبطة مزودة بأحدث الأسلحة والمعدات المحلية الصنع، ويرتدي جنودها ملابس محلية الصنع، وتمتلك أسطولا قويا يجوب البحار ليفرض سيطرته بسفن مصنوعة في ترسانات الدولة التي يزدهر اقتصادها في جميع المجالات، ولا تحتاج ما يلزمها من طعام أو أي منتجات من الخارج، دولة

تنعم بالعلم وتوظفه في جميع المجالات، دولة لا تخضع لغيرها، وتمتلك قرارها وتحمي مقدساتها، وتفرض إرادتها ولا تستجدي حقوقها، وتحافظ على تراثها ومقدساتها، وتكون فاعلا لا مفعولا به، ولم يكن يعرف لاظ، بالطبع، أن سيده رجل دولة من الطراز الأول، وأنه سيحكم مصر لما يقرب من أربعة وأربعين سنة. ثم أفاق لاظ فجأة مما هو فيه، وقال للباشا بعد تهنئته بالولاية:

– ماذا سنفعل يا أفندينا بشأن المماليك ورواتب الجنود وغيرها من الأمور؟!

– لا تشغل بالك يا لاظ بك، إنها أمور بسيطة يمكن تداركها..

لقد شعر الباشا بقلق لاظ وقرأ انفعالاته وأراد أن يطمئنه فقال مبتسمًا:

– يجب أن ناديك من الآن بلقب كتخدا بك، نائبنا الهمام..

– أرجو أن أكون عند حسن ظنك يا أفندينا.

– أمازلت تريد معرفة ما يجب فعله حيال ما يقلقك من أمور لا تستحق القلق؟

– لا يا أفندينا؛ فأنا أثق في حكمتكم وسأنفذ تعليماتكم بإخلاص..

فضحك الباشا وقال:

– حسنًا كتخدا بك، هذا ما توقعناه منك.

هنا قرر الباشا أن يرسل إلى قولة من يستدعي ولديه إبراهيم وطوسون، ليس لقلة ثقته في لاظ، ولكن لحاجته في هذه المرحلة للمزيد من الرجال المخلصين حوله، وهل هناك من هم أخلص له من أولاده؟ فعلى الرغم من أنهم صغار في السن، ولم يتجاوز أكبرهما سنًّا العشرين عامًا، إلا أنهما قد ورثا منه كثيرًا من الصفات كالإقدام والشجاعة وعدم التردد، وأهم من كل هذا عدم التوتر والقلق الذي يصاحب لاظ دائمًا، وخاصة في الأوقات الحرجة..